المحاضرة الخامسة: المنهج التجريبي عند ديفيد هيوم

لقد قصد هيوم بالمنهج التجريبي تتبع واستقراء موضوعات الفلسفة من معرفة وأخلاق انطلاقا من بدايتها الأولى، وقد اعتبرت بحوث هيوم وأراءه من إرهاصات علم النفس التجريبي الحديث. ومن ثمّ فإنّ محاولته تطبيق المنهج التجريبي على الموضوعات الأخلاقية بشكل خاص هو أن يتحول إلى مشرح الطبيعة البشرية والوصول إلى أهم المبادئ والقواعد التي تحكم الطبيعة البشرية والوصول بذلك الدقة العلمية التي تميزت بها العلوم الطبيعية في مجال الأخلاق، لذا فما طبيعة المنهج عند دافيد هيوم؟ وعلى أي أساس بنى منهجه؟ وهل نجح في تطبيقه على الطبيعة البشرية؟

1/- طبيعة المنهج عند ديفيد هيوم:

إن القاعد الأساسية التي تصدر عنها تجريبية ديفيد هيوم والتي يقيم عليها مذهبه هي: أن المعرفة باختلاف درجاتها إنّما ترجع إلى الإحساس والفكر اللذين يردان المعرفة إلى مصدر وحيد هو الآثار الحسية. فإدراكات العقل الإنساني ترجع إلى حسين متميزين ولأثر فعال للعقل فيهما هما:

الانطباعات: الآثار الحسية وهي أقوى في العقل أثرا وأوضح ظهورا.

الأفكار: وهي نسخ عن الانطباعات، أي هي مجرد انعكاسات باهتة للإحساسات.

فالعلاقات بين الأفكار يتمّ اكتشافها بواسطة عملية الفكر، والأفكار البسيطة (كاللون)، ومركبة (كالتفاحة) التي لها لون وطعم ورائحة. وبتحليل الأفكار المركبة نجد أنها حسية بسيطة لا غير[1]. إن الخبرة الحسية مصدر معرفتنا الوحيدة وليس لدينا أفكار فطرية، كما أنها محدودة بحدود حواسنا وأفكارنا. لذا استطاع في بحثه في الطبيعة البشرية التوصل إلى فكرة أساسية من خلال استعانته بالملاحظة باعتبار إن السلوك الإنساني سواء كان معرفيا أو أخلاقيا أو فنيا هو الإحساسات.

---

[1]- لأيوب أبو دية، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2009، ص232.

2/- المنهج التجريبي في دراسة الطبيعة الإنسانية:

لقد أخذ هيوم إيحاء تطبيق المنهج التجريبي في دراسة الطبيعة البشرية من الإنجازات التي حققها نيوتن لعلم الطبيعة أو الفيزياء. اكتشف نيوتن عدداً قليلاً من المبادئ التي تحكم كل حركة فيزيائية سواء على الأرض أو في الأفلاك، وينظر هيوم إلى الطبيعة البشرية على أنها في النهاية طبيعة، يمكن دراستها والوصول فيها إلى المبادئ الأساسية الحاكمة لها تمامّا مثلمّا أمكن لنيوتن أن يتوصل إلى مبادئ الطبيعة الفيزيائية، ولأن العلم النيوتوني هو في الأساس علم للحركة، فقد نظر هيوم أيضاً إلى علم الطبيعة البشرية على أنّه علم للحركة، لكنها الحركة النفسية لا الحركة الفيزيائية، وبذلك انطلق من المبادئ الأساسية التي تحرك النفس الإنسانية مثل الانفعالات والأحاسيس، والمشاعر، مؤسساً عليها نظريته في المعرفة وفي الأخلاق. واعتبر النموذج العلمي الذي يجب على جميع العلوم إتباعه والاقتداء به، لأن تطبيق المنهج الفيزيائي هو الضامن الوحيد في نظره لعلمية الفلسفة، ومن ثم دقة وموضوعية نتائجها. وهذا ما دفع به إلى أن ينشئ علم تجريبيّا لطبيعة الإنسان والعقل يستخدم فيه المنهج التجريبي على طريقة نيوتن [1] من أجل الوصول إلى قوانين، والتحكم في السلوك الإنساني.

وإذا كان نيوتن يهدف إلى تطبيق المنهج التجريبيِّ على العلوم الطبيعيَّة، فإنَّ الأول كان يحاول أن يمدَّ مناهج العلم النيوتونيِّ على ساحة العلوم الإنسانيَّة آنذاك. وكما صرَّح في مدخل كتاب"رسالة في الطبيعة البشريَّة"، كان يعتقد بأنَّ كلَّ العلوم لها علاقة ما بالطبيعة البشريَّة، ويقول إنَّ ذلك أمر واضح في المنطق، والأخلاق، والنقد والسياسة، أما الأخلاق ومذهب النقد (أي الجمال) فيعالجان أذواقنا وعواطفنا، أما السياسة فتدرس وحدة الناس في المجتمع. ويبدو أن الرياضيات، والفلسفة الطبيعية، والدين الطبيعي تهتم بموضوعات غير

[1] - عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص518.

الإنسان، بيّد أنَّ لها صلة أيضاً بهذه الطبيعة، إذ تُعرف عن طريق الإنسان، والإنسان هو الذي يحكم على ما هو صادق وما هو زائف في هذه الفروع من المعرفة.

ولذلك فإن هيوم قد وضع لبحثه في الطبيعة البشرية عنواناً فرعياً هو "محاولة لإدخال المنهج التجريبي في الموضوعات الأخلاقية"، وهو يقصد بالموضوعات الأخلاقية كل أجزاء كتابه: الفهم الإنساني والانفعالات والأخلاق. لم يكن هيوم هو أول من بحث في الطبيعة البشرية، ذلك لأن هذا البحث كان ملازماً للفكر الفلسفي منذ ظهوره لدى اليونان، لكنه يعد أول من بحث فيها انطلاقاً من المنهج التجريبي. وهو يقصد من المنهج التجريبي تتبع موضوعات الفلسفة من معرفة وأخلاق انطلاقاً من بداياتها الأولى، فهو يدرس المعرفة انطلاقاً من الإدراك الحسي وانطباعات الحواس، ويدرك الأخلاق انطلاقاً من الانفعالات. والحقيقة أن البّدء بالإدراك الحسي والانفعالات لدراسة المعرفة والأخلاق يجعل نظريته سيكولوجية، وهو يعترف بذلك بالفعل ويذهب إلى أن علم النفس هو العلم الفلسفي الحقيقي عن جدارة. والملاحظ أن علم النفس الذي يفهمه هيوم هو علم الطبيعة البشرية، ولذلك نستطيع أن نفهم مصطلح "الطبيعة البشرية" باعتبارها العنوان العام لفلسفته على أنه الطبيعة السيكولوجية للبشر. ولهذا السبب ينظر إلى هيوم على أنه من إرهاصات علم النفس التجريبي الحديث.

وهكذا، فإن الطبيعة البشريَّة تكون مركز العلوم وأساسها، ومن الأهميَّة البالغة أن تُطوِّر علماً للإنسان، ولكن كيف يتمُّ ذلك؟ عن طريق تطبيق المنهج التجريبيِّ، "لأن هذا العلم هو الأساس الصلب والوحيد للعلوم الأخرى، لذا فإنَّ الأساس الوحيد الصلب الذي يمكن أن نعطيه لهذا العلم نفسه، لا بدَّ من أن يرتكز على التجربة والملاحظة"[1]. إن غرضه هو تطبيق المنهج التجريبي الذي طبق بنجاح في ميدان العلوم الطبيعية على دراسة الإنسان أيضا، بمعنى أنه ينبغي أن نبدأ بملاحظة لعمليات الإنسان السيكولوجية، وسلوكه الأخلاقي،

---

[1]- فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود سيد احمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح غمام، المجلد الخامس، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003، ص334.

وسعيه إلى التيقن من مبادئها وعللها، إلا أنّه لا يمكن أن نقوم بتجارب في هذا الميدان بنفس الطريقة الدقيقة التي يمكننا أن نقوم بها في الكيمياء. إلا أنّه يجب أنّ نعتمد على المنهج الاستقرائي بدلا من المنهج الاستنباطي " وحيثما نجمع ونقارن تجارب من هذه النوع بحكمة. فإننا قد نأمل في أن نقيم عليها علما لا يكون وضعيا في اليقين، ويكون أكثر سموا في المنفعة، من أي علم بشري آخر"[1]. لقد حاول هيوم في أعماله الفلسفيَّة أنّ يجتنب قدر المستطاع المفاهيم الغامضة والخفيَّة نظير الجوهر والصور النوعيَّة وما إلى ذلك، وأن يولي، في المقابل، اهتماماً أكبر للملاحظة والتجربة، فلم يكن يذعن لتفسير الأحداث عبر الأوصاف الخفيَّة والتحليلات الميتافيزيقيَّة بل كان يعتبر هذا المنهج نوعاً من الافتراضات الخياليَّة التي حالت دون وصول الأجيال القديمة إلى العلم الحقيقيّ.

إن استخدام المنهج الاستقرائيِّ في العلوم الإنسانيَّة عموماً والفلسفيَّة على وجه الخصوص، يواجه صعوبات من الناحية المعرفيَّة، ركَّز جهوده على مبدأ السببيَّة بوصفها عنصراً محوريَّاً لحلِّ المفارقة المعرفيَّة الكامنة في نظريَّته. وبناء على هذا، فقد شغلت السببيَّة حيّزاً كبيراً في فكره، وأصبحت بمثابة قطب الرُّوحي في أعماله الفلسفيَّة، كما أنّها تمثّل ركيزة أساسيَّة للمنهج التجريبيِّ الذي يقترحه، أنَّ الرؤية الخاصة التي أسَّس عليها مسعاه حول السببيَّة كانت تتجذّر في آرائه الابستمولوجيَّة، ومن أجل ذلك لا يمكن دراسة فكره بمعزل عن نظريَّته المعرفيَّة.

أ- المصدر التجريبي لمبدأ العلية:

يمضي هيوم في اتجاهه التجريبي لتحليل تصوراتنا، منها العليّة الذي اتضح أنّه ليس تصورا بسيطا كما تصوره دعاة المذهب العقلي. إذ إنّه " لا يمكننا القول بأن مجرد تحليل العلّة يتضمن وجود المعلول كأحد عناصرها"[2] لأن المعلول متميز عن علته، وعلى هذا فإنّه

---

[1]- فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص335.

[2]- ماهر عبد القادر محمد، الاستقراء العلمي في الدراسات العربية والغربية. دراسة ابستمولوجية منهجية التصورات والمفاهيم، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص179.

لا يمكن منطقيا القول بأنّه متضمن فيها. لذا نجد أنّ علاقة العلية لا تكشف عن ضرورة منطقية، وإنّما لكل حادثة علّة، مرده إلى التجربة، فهي تكشف لنا " أنّ ثمّة نزعة الذهن تجعله ينبسط على الموضوعات الخارجية ويخلع عليها كل الانطباعات الباطنية التي تحدث في عين الوقت الذي تتكشف فيه هذه الموضوعات للحواس"[1]. فهيوم ينظر إلى الانطباع الحسي على أنّه المعيار الوحيد للكشف عن صدق أيّ فكرة.

هكذا يقوض هيوم القضية الأساسية للمذهب العقلي التي تؤكد فطرية تصور العليّة وقبليته، حيث أصبح التصور في جوهره مستمرا من التجربة الحسية والانطباعات التي نحصل عليها من العالم الخارجي. ومن ثمّ فإنّه تصور يعبر عن علاقة بين حوادث، ويصبح المصدر التجريبي لتصور العليّة، متمثلا في إدراك تتابع بين حادثتين وتلازمهما تلازما متكررا، ومن ثّم فإنّ فكرة الارتباط الضروري بين الحدثين ما هو إلا عادة نشأت في اذهاننا نتيجة الملاحظة المتكررة وعنها يقوم هيوم: " التعوّد إذن هو المرشد الأكبر للحياة البشرية إنّه المبدأ الخبرة ذات نافعة لنا، وهو وحده الذي يجعلنا نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث المتشابهة لتلك التي ظهرت في الماضي"[2].

ب-هيوم ومبدأ اطراد الحوادث:

يرى هيوم انه إذا كانت مشاهداتنا السابقة والحالية تجعلنا نقول "الشمس سوف تشرق غدا"، فإن هذا القول ينطوي على اعتقاد فحسب، ولا يتضمن فكرة الضرورة. من هنا بدأ مناقشة مبدأ اطراد الحوادث. لذا: فما موقف هيوم من مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة؟ فكيف يمكننا أن ننتقل من وقائع تمّ مشاهدتها إلى وقائع لم يتمّ مشاهدتها؟ وكيف لنا أنّ نحكم على ما هو كلي انطلاقا مما هو جزئي؟ بمعنى، أنّ ما سيحدث في المستقبل سيشبه ما حدث في الماضي والحاضر فعلى أيّ أساس يتّم هذا الانتقال؟ جاءت وجهة نظر هيوم

---

[1] - ماهر عبد القادر محمد، الاستقراء العلمي في الدراسات العربية والغربية. دراسة ابستمولوجية منهجية التصورات والمفاهيم، مرجع سابق، ص180.

[2] - دفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2008، ص 73.

لمشكلة اطراد الحوادث في الطبيعة وذلك من خلال ما يتفق مع الواقع وطبيعته، ويقدم تصوّر لحل المشكلة من خلال التمييز بين القضايا الرياضية والمنطقية من جهة وبين القضايا التجريبية التي لها علاقة بالواقع والعلوم الطبيعية من جهة أخرى، وبهذا الصدد يقول":يمكن لجميع موضوعات العقل البشري أن تنقسم طبيعيا إلى ضربين هما :علاقات الأفكار والوقائع. من الضرب الأول علوم الهندسة والجبر والحساب، وباختصار كل اثبات يكون يقينيا إما بالحدس أو بالبرهان."[1]

النوع الأول من القضايا مثل المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين، هذا النوع من القضايا لا يتوقف صدقه على الواقع التجريبي لأنها قضية صادقة صدقا مطلقا، ولا يمكن تصور نقائض تلك القضايا. أما النوع الثاني، القضايا المتصلة بالواقع الاستقرائي فإنّ صدقها يتوقف على الواقع، أي على التحقيق التجريبي لها. فالخبرة هي التي تكشف لنا صدق القضية.

وبذلك فهيوم هنا يرى بأن البراهين التي تجعلنا نعتقد بأن ما حدث في الماضي سيحدث مثله في المستقبل فيجب أن تكون براهين احتمالية لا يقينية، بمعنى إننّا بإمكاننا أنّ نعتقد بأنّ ما حدث في الماضي سوف يشبه ما يحدث في المستقبل، لكن يجب أنّ تكون هذه الأدلة التي نثق بها أدلة احتمالية وهذا فيما يتعلق بقضايا الواقع. ولكن ما الدليل على هذا الاعتقاد؟ بهذا الصدد يقول هيوم:" قلنا إنّ جميع الحجج المتعلقة بالوجود تتأسس على علاقة السبب بالأثر وإنّ معرفتنا بهذه العلاقة تستمد بكاملها من الخبرة وإنّ جميع خلاصاتنا التجريبية تستمد من الافتراض أنّ المستقبل سيكون مطابقا للماضي، إنّ محاولة التدليل على هذا الافتراض الأخير بحجج ترجيحية، أي حجج تتعلق بالوجود، تعني إذن بالضرورة الدوران في حلقة مفرغة وحسبان المطلوب بمثابة معطى[2]".

---

[1]- دفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، مرجع سابق، ص49.

[2]- المرجع نفسه، ص62.

وهكذا نجد أنّه لا يمكننا اثبات مبدأ اطراد الحوادث اثباتًا تجريبيًا من الخبرات الماضية والحاضرة، لأنّ الوسيلة الوحيدة لإثباته هو أنّ ننتظر المستقبل لتؤيده الوقائع، ولكن في هذا الانتظار نفترض ما نريد اثباته وبذلك لا يمكن اثبات مبدأ الاطراد بيقين، ومن ثم فإن صدق النتيجة الاستقرائية العامة أي القانون العام صدق احتمالي.